13

روسيا وسيناء .. خبايا وأسرار تفصح عنها مخطوطات سيناء

تذخر شبه جزيرة سيناء بالعديد من الأماكن المقدسة ، التي ورد ذكرها في سفر " الخروج" بالإنجيل . ويجيء من أهمها العليقة الملتهبة وجبل سيناء . كانت كنيسة سيناء الأرثوذكسية المستقلة اليونانية هي المسئول الأول عن الحفاظ على تلك الأماكن المقدسة ورعايتها . تقع تلك الكنيسة وسط دير سانت كاترين الذي شُيد في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي في عهد الإمبراطور البيزنطي جوستنيان . وتحول هذا الدير والأماكن المحيطة به منذ زمن بعيد إلى مزاراً للحجاج من مختلف دول العالم ، وخاصة من روسيا.

يشير الرحالة البارز أ.ف يليسيف (١٨٥٨ـ ١٨٩٥) الذي جاب العديد من دول الشرق الأوسط ، إلى أن «الحاج الروسي قد عرف طريقه إلى الأماكن المقدسة بالشرق ، حتى ربما قبل أن يعم نور المسيحية جميع الأسرة السلافية» [٤١٠] . وهذا الكلام صحيح بالفعل ،

٤١٠ عن مقالة : Россия и Синай. О чём молчат синайские манускрипты والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقي» ، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Vladimir Belyakov . يليسيف . أ . ف «مع الحجاج الروس إلى الأراضي المقدسة بالشرق في ربيع ١٨٨٤»، سانت بطرسبورج ، ١٨٨٥ صـ ٢ .

فقد ورد في مخطوطة ليكونوفسكي : «في صيف ٦٥٠٩ (أي في عام ١٠٠١ – بيلياكوف» أن فلاديمير قد أرسل سفراءه إلى عدة دول .منها على سبيل المثال روما ، والبعض الآخر إلى القدس ومصر وبابليون ، وذلك بهدف التجوال عبر أراضي تلك الدول وأيضاً من أجل التعرف على عاداتهم وتقاليدهم» [٤١١] . والمقصود ببابليون المذكورة هنا هي «بابليون المصرية» الواقعة بالقرب من القاهرة القبطية القديمة . ويبدو من جغرافية السفارات أن المهمة التي أُرسل لأجلها هؤلاء السفراء كانت مهمة دينية في المقام الأول . ففي روسيا كانوا يعلمون جيداً الأهمية الدينية لتلك الأماكن المقدسة ليس فقط في روما والقدس ، بل وكذلك في مصر وشبه جزيرة سيناء .

كتب يليسيف يقول : «منذ قديم الزمان والحجاج الروس يذهبون إلى أماكن العبادة في جبل آثوس [٤١٢] وسيناء والأماكن المقدسة في فلسطين ، وكان جبل آثوس من أكثر الأماكن التي يفد إليها الحجاج الروس نظراً لقربة من روسيا إذا ما قارناه بسيناء التي كانت الصحراء البرية الموحشة تفصلها عن العالم ، وبسبب وضعها الجغرافي لم تكن سيناء المكان المحبب للحجاج» [٤١٣] . وبالرغم من ذلك ، فقد كان الروس يحجون إلى سيناء بصورة منتظمة . وهو ما أشارت إليه المدونات التي خطوها بأيديهم . ويعود أقدم تلك الكتابات التي تخص الحجاج الروس الذين زاروا سيناء إلى العام ١٣٧٠ م لصاحبها أرشمندريت دير سمولينسك أفرامسكى أجريفيني. بيد أن كتابات هذا الحاج كانت شحيحة ، حيث أنه لم يكن يقدم أي وصف للأماكن المقدسة في سيناء . وتحدث فقط عن مسافات رحلات الحج من سيناء إلى فلسطين ، وجاء في كتاباته الآتي : « ... كانت المسافة من غزة إلى مصر تستغرق حوالي إثني عشرة يوماً ومن مصر (القاهرة) إلى الإسكندرية ستة أيام ، أما المسافة من القاهرة إلى طور سيناء فكانت تستغرق خمسة عشر يوماً ، وكذلك المسافة من غزة إلى طور سيناء كانت تستغرق نفس المدة ، وهى خمسة عشر يوماً . وإلى يومنا هذا يذهب المسيحيون الأرثوذكس إلى هناك . ولا يذهبون لأبعد من ذلك» [٤١٤] . لم يتضح لنا

٤١١ المجلد الكامل للمخطوطات الروسية ، مجلد رقم ٩- ١٠ مخطوط باتريارشايا أو نيكونوفسكي، موسكو ١٩٦٥، صـ ٦٨.

٤١٢ * هو الجبل المقدس في بلاد اليونان . وكان قدماء اليونان يرونه أعلى جبل في العالم ، وإستخدمه فلكيوهم مرصداً . تحيط بالجبل غابات واسعة من أشجار الكستناء والسنديان وغيرها ، وكان يقطنه رهبان في القرن الخامس عشر ويقيمون فيه أديرتهم حتى نافت على ٣٠ ديراً بقي منها ٢٠ ديراً فقط (المترجم) .

٤١٣ يليسيف . ف ، المرجع السابق ، صـ ٩.

٤١٤ مسيرة الأرشمندريت أجريفينيا ، تحرير الأرشمندريت ليونيد // مجموع فلسطين الأرثوذكسية ، الإصدار رقم ٤٨ ، سانت بطرسبورج ١٨٩٦ ، صـ ٢ .

مـن هذا النص القصـير ما إذا كان أجريفينى قد ذهب إلى سـيناء أم لا . لكن من المتوقع أن يكون قد حصل على تلك المعلومات وهو داخل الأراضي الفلسطينية. وعلى أية حال ، فإن الأرشمندريت الذي يعيش في منطقة سمولينسـك يتحدث عن زيارة الحجاج الأرثوذكس إلى أرض سـيناء ، وكأنه يتحدث عن موضوع تقليـدي . وهو الأمر الذي ظهر جلياً من خلال البحـث الأخـير الذي أجـراه العلماء الـروس ، على إحـدي المخطوطات القديمـة المحفوظة في مكتبة دير سانت كاترين . وفي عام ١٩٩٥ تعرف العالم ي.ن شابوف على مخطوطة تعود لنهاية القرن الثاني عشـر محفوظة في ملف يحمل اسـم (Sin.Slav. 39) . وكان الجميع يعتبرها مخطوطة من صربيا . وتوصل العلماء إلى أن هذه المخطوطة هي مخطوطة للرسـول أبراكوس مع تقويم[٤١٥]* وهي مخطوطة روسـية قديمة . وعلى حواشـى الأوراق توجد قوائم بأسماء . ويشـير «ي.ن شـابوف» : «أنه بسـبب تلك الأسماء ، ومن أجل إقامة صلاة الغائب عليهم داخل دير سـانت كاترين في سـيناء تم نقل هذه المخطوطة من روسـيا إلى سـيناء . وكان لابد أن يقوم بهذا أحد أفراد تلك الدولة بعد وفاة الأمين علي تلك المخطوطة ، والذي توفي في القرن الثالث عشر» [٤١٦] .

بحلول منتصف القرن الرابع عشر بدأت العلاقات بين روسيا ودير سانت كاترين في سـيناء تتسم بالاستقرار . وفي مقدمة كتاب رحلة أجريفينى يشير الأرشمندريت ليونيد ، مسـتنداً إلى مـا جـاء في المدونات التاريخيـة أنه في عـام ١٣٧٦ كان قد جاء إلى موسـكو الأسقف مارك ، وذلك لجمع الصدقات لدير سانت كاترين [٤١٧] . وفي عام ١٣٩٠ نُقل من سيناء إلى موسـكو حجر مرسوم عليه صورة شـجرة العليقة المحترقة ، ليوضع داخل كاتدرائية البشارة في موسكو [٤١٨] .

٤١٥ * يقصد بهذا التقويم : تقويم كنائسـي أو شـعبي يشـير إلى ذكرى القديسـين وأعياد الكنيسـة . (المترجم)

٤١٦ شـابوف . ي . ن «ثلاثـة أيـام فـي دير سـانت كاترين في سـيناء // جينادِيـوس» ، مجموعة مقالات الأكاديمي ج . ليتافيوس ، موسكو ، ١٩٩٩ ، صـ ٢٨٧

٤١٧ مسيرة الأرشمندريت أجاريف ، صـ ٨ .

٤١٨ الفيروفا . ف . «الحج إلى سيناء» ، موسكو ، ١٩٩٨ ، صـ ٢٧ .

في عام ١٤٥٣ سقطت الإمبراطورية البيزنطية ، التي كانت معقلاً للمسيحية تحت ضربات الأتراك لها . وأشار «ن.ف.كابيتروف» [٤١٩] في مطلع القرن العشرين إلى أن : «سقوط بيزنطة قد ألقى على عاتق الدولة الروسية العديد من الالتزامات تجاه الأرذوكسية في كل أنحاء العالم» . ففي هذا التوقيت كانت موسكو قد انتهت من عملية تجميع شتات الأراضي الروسية ، لتتحول روسيا إلى دولة كبرى موحدة ، وفي عام ١٤٨٠ تخلصت من النير التتاري – المغولي ، و أصبح في إمكان روسيا وحدها أن تحل محل بينزنطة ، لتصبح حامية العقيدة الأرذوكسية في العالم . ويشير الأسقف تيموتي أوير المؤرخ الإنجليزي للمسيحية إلى أن : «شعب موسكو كان يشعر أن تزامن سقوط الإمبراطورية البيزنطية مع الخلاص من بقايا هيمنة وسيادة التتار ، لم يكن من قبيل المصادفة . وكأن الرب منحهم الحرية لأنه اختارهم خلفاً لبيزنطة» [٤٢٠] بيد أن إمكانيات روسيا باعتبارها أكبر دولة عظمى أرذوكسية بالعالم آنذاك لمساعدة إخوانهم في العقيدة كانت محدودة للغاية . فلم يكن بإمكانها تحريرهم من قبضة الأتراك . ولكن سمح الحكام الروس للبطاركة الشرقيين من القسطنطينية، والقدس ، وإنطاكية ، والإسكندرية وسيناء بمصر ، بإيفاد رُسلهم إلى موسكو لجمع التبرعات والصدقات . يشير البروفسير كورت وايزمان الأستاذ بجامعة بريستون في واشنطن والذي كان يترأس البعثة العلمية الأمريكية التي ذهبت إلى دير سانت كاترين في السبعينيات [٤٢١] إلى أنه : «بعد أن تعهدت روسيا بأن تلعب دور الحارس الأمين علي الأرذوكسية في كل أنحاء العالم ، أخذت تقوم بتزويد الأديرة اليونانية بالأدوات الكنسية والمخطوطات والأيقونات . كذلك الحال بالنسبة لجبل آثوس والقدس وسيناء كانوا قد حصلوا علي قدر ، ليس بالضئيل من تلك الهدايا القيمة» .

تعود المدونات الأولى التي وصلتنا عن رحلات الحجاج الروس إلى أراضي سيناء إلى عهد القيصر إيفان الثالث ، حيث زار الراهب فارسونوفي دير سانت كاترين في مطلع عام ١٤٩٢ ، ووصف الدير بإسهاب ، ومعبده الرئيسي كنيسة التجلي و العليقة الملتهبة

٤١٩ كابتروف . ن . ف « طبيعة علاقة روسيا بالشرق المسيحي بالقرنين ١٦-١٧ الميلادي ، الطبعة الثانية ، سيرجيف بوساد ، ١٩١٤ ، صـ ١٠٣ .

٤٢٠ *Ware T.* Orthodox Church. New Edition. London, 2000, p. 102

٤٢١ *Weitzmann K.* Introduction to: John Galey. Sinai & the Monastery of St. Catherine. Cairo, 1985, p. 153

وصعوده فوق جبل موسى وجبل سانت كاترين[٤٢٢] . وقد أرسل القيصر إيفان جروزني تبرعات قيمة لسيناء عدة مرات . في عام ١٥٥٨ م أرسل القيصر إيفان جروزنى تبرعات مع التاجر فاسيليفيتش بوزنياكوف ، من أجل صحة العائلة المالكة ، الأمر الذي كان مألوفا في تلك الفترة . وذات مرة كتب القيصر إيفان للبطريرك يواقيم، بطريرك الإسكندرية يقول : «من الآن فصاعداً سنرسل لك عطية الرب بصفة دائمة ، مع رئيس الشمامسة جينادي والتاجر فاسيلي بوزنياكوف. وهي عبارة عن أدوات كنسية مرسلة مع ألف أوقية من الذهب داخل معطف مخملي . كما طلبتُ من المطران وجميع الرهبان إنشاء دير في جبل سيناء وأرسلت حوالي ١٠٠٠ عملة ذهبية ، وها أنا ، أناشدك أن تدعو الرب وأمه الطاهرة ، وجميع القديسين بالحفاظ علينا وعلى صحتنا ، وأن يحفظوا القيصرة أنستاسيا وأبناءنا القياصرة الصغار إيفان وفيدور ، وأن يحفظوا لنا الأرذوكسية المسيحية بأكملها» [٤٢٣] . وبعد ذلك أرسل إيفان الرهيب صدقة إلى سيناء علي روح زوجته الأولى أنستاسيا التي تُوفيت في عام ١٥٦٠ ، وصدقة أخرى على روح شقيقه يوري [٤٢٤] ، وأخيراً ، أرسل صدقة علي روح إبنه إيفان : «سيادة القيصر الحاكم إيفان فاسيليفيتش ، وكل روسيا ترسل إليك من موسكو صدقة علي روح ابنها القيصر الصغير إيفان إيفانيفيتش (الذي توفاه اللّه في عام ١٥٨٢ ، ف.بيلياكوف). والصدقة مرسلة مع التاجرين تريفون كاروبينيكوف ويوري جريك وسيكون معهم فيودور العراب في دروب الصحراء ، وسيرسل معهم الحاكم ٥٠٠ روبل نقداً لصالح إنشاء دير للقديسة كاترين [٤٢٥] في جبل سيناء ....»

كان فاسيلي بوزنياكوف الذي رافقه البطريرك ألكسندر يواقيم ، في رحلته إلى دير سانت كاترين ، قد كتب وصفاً رائعاً لرحلته إلى سيناء وفلسطين . ولكنه لم يحظ بالاهتمام والتقدير اللائق من مواطنيه . في حين كان هناك مصير مغاير لمدونات كل

٤٢٢ رحلة فارسونوفيا في مصر ، سيناء وفلسطين \\ كتاب رحلة ، موسكو ١٩٨٤، صـ ٣٤٤ : صـ ٤٤٩ .

٤٢٣ رسالة القيصر إيفان فاسيليفيتش ليواقيم بطريرك الإسكندرية مع التاجر فاسيلي بازنياكوف ، ورحلة التاجر بوزدنياكوف إلى فلسطين والقدس والأماكن المقدسة في عام ١٥٥٨ ، موسكو ، ١٨٨٤ ، صـ ١٢ .

٤٢٤ بياتنتسكي . يو «سيناء ، بيزنطة والروس « \\ ناشي ناسليديا ، العدد رقم ٥٨ ، ٢٠٠١ ، صـ٣٠، صـ ٣٣ .

٤٢٥ رحلة تريفون كاروبينيكوف \\ كتاب المسيحية الفلسطينية ، الإصدار رقم ٢٨ ، سانت بطرسبورج ١٨٨٨ ، صـ ٦ .

من : تريفون كاروبينيكوف ، ويوري جريك ، والتي تُعد نسخة طبق الأصل من مدونات بوزنياكوف : «باتت رحلاتهم ومسيراتهم تحظى بشعبية كبيرة منذ وقت طويل» . ووفقاً لما أشار إليه «أ.ساخاروف» في منتصف القرن التاسع عشر ، فإنها باتت معروفة في مئات القوائم[٤٢٦] . وساهمت شهرة هذا العمل الأدبي في جذب عدد كبير من الروس ، لزيارة تلك الأماكن المقدسة في دول الشرق الأوسط .

في منتصف القرن السابع عشر ، بدأت روسيا تولي سيناء اهتماماً كبيراً من بين كل الأماكن المقدسة ، على الرغم من بعد المسافة بينهما . ونذكر على سبيل المثال أن رُسل أربعة من بطاركة الشرق الذين كانوا يذهبون إلى روسيا لجمع الصدقات والتبرعات، كان عليهم أن ينتظروا على الحدود في منطقة بوتيفلي ، إلى أن يصدر الإذن من القيصر للسماح لهم بالدخول إلى العاصمة ، إلا أنه ووفقاً للوثيقة الممنوحة لدير سيناء في عام ١٦٤٨، كان يُسمح لرُسل ومبعوثي الدير بالدخول إلى العاصمة موسكو على الفور دون أي انتظار[٤٢٧] . على الأرجح إن الأهمية الدينية لسيناء ، والشهرة الطاغية في روسيا للقديسة كاترين ، التي ترقد رفاتها في الدير قد لعبا دوراً هاماً . ويتضح ذلك جلياً من خلال تلك الحقيقة التي تفيد بأن أول وسام نسائي أسسه القيصر بطرس الأول في عام ١٧١٤ هو وسام التحرير باسم القديسة الشهيدة كاترين[٤٢٨] . وهناك مشهد آخر يثير الدهشة بشكل كبير . ففي الرابع والعشرين من نوفمبر ١٦٥٨ ، تجلت القديسة كاترين للقيصر أليكسي ميخائيلوفيتش الذي قرر المبيت في خيمة أثناء قيامه برحلة صيد إلى أحراش إيرمولينسك ، بالقرب من موسكو ، فتجلت له القديسة كاترين ونبأته بأن الرب سيمنحه طفلة ، وفي اليوم التالي بعد أن عاد إلى موسكو وجد القيصر بالفعل أن زوجته قد أنجبت مولودة جميلة ، أطلق عليها اسم كاترين ، وقرر القيصر أن ينشئ ديراً للقديسة كاترين في المكان الذي رأي فيه تلك الرؤية . ومازال قائما حتى الآن (في مدينة فيدنوي[٤٢٩*])[٤٣٠] .

٤٢٦ «حكايات الشعب الروسي» ، إعداد وتجميع أ . ساخاروف ، مجلد٢ ، سانت بطرسبورج ، ١٨٤٩، صـ ١٣٦ .

٤٢٧ كابتيروف . ن . ف ، المرجع السابق ، صـ ١٠٦ .

٤٢٨ القاموس الموسوعي لـ ف . أ بروكجاوز ، ي . أ. يفرون ، المجلد ٢٢ سانت بطرسبورج ، ١٨٩٧ صفحة «وسام» .

٤٢٩ * فيدنوبي هي إحدى مدن روسيا في الكيان الفيدرالي الروسي إقليم موسكو وعاصمة منطقة لينينسكي (المترجم) .

٤٣٠ دير سانت كاترين، إصدار دير سانت كاترين للرجال، موسكو، ١٩٩٨، صـ ٧.

مـن الجدير بالذكر أيضاً ، أن أبناء القيصر أليكسـي ميخائيلوفيتش قد لعبوا دوراً كبـيراً ، في تعزيز العلاقات بين روسـيا وسـيناء . ففي عام ١٦٨٨ بناءً علـى مبادرة من آباء سـيناء ، أعلنت روسـيا رسميـاً رعايتها لدير سـانت كاتريـن . وجاء في الوثيقـة الممنوحة لدير سـانت كاترين في الخامس من فبراير ١٨٦٦ باسـم القيصر وكبار الأمراء إيوان وبيتر أليكسـيفيتش والأمـيرة الكـبرى صوفيا أليكسـيفنا [٤٣١] : «أننا سـنخصص جـزءاً من الأعمال الخيرية لصالح الحفاظ على دير سانت كاترين ، وشجرة العليقة المحترقة ؛ وذلك تكريماً للمؤمنين بالمسيحية في كل أنحاء العالم» . ويذكر أنه قبل عام من هذا الحدث، تم إعداد وإرسال تابوت فضي مطلي بالذهب ليضم رفات القديسة كاترين . سجل الكاتب المعروف والحاج فاسـيلي جريجوريفيتش بارسـكي ، بعد زيارته لسـيناء في عام ١٧٢٨ في مدوناتـه : «أن ذلـك التابـوت الفضى الذي تم إرسـاله إلى دير سـانت كاترين هـو من إبداع القيصرة كاترين أليكسيفنا وهي شقيقة الإمبراطور بطرس الأول [٤٣٢] . بل ومن المرجح أن تكـون هي صاحبة مبادرة إهداء هـذه الهدية» . بيد أن التوقيع الموجود على التابوت يقول: «إنـه في صيـف ٧١٩٥ (أي عـام ١٦٨٧ ف.بيلياكوف) وفي أحد أيام شـهر يونيو نحن كبار الأباطرة المسيحيين في العالم من ملوك وقياصرة وأمراء كبار ، مثل إيوان أليكسيفيتش وبيـتر [٤٣٣]* أليكسـيفتش وجلالـة الملكـة والأميرة الكـبيرة صوفيا أليكسـيفنا ، قد أهدينا هذا التابوت الفضي المطلي بالذهب من خزانتنا الملكية إلى جبل سيناء المقدس" [٤٣٤]

منذ مطلع القرن التاسع عشر وحتى ثورة ١٩١٧ ، ظلت نفقات الكنيسة الأرثوذكسية في سـيناء تأتي من روسـيا بصفة أساسية . ويرجع هذا في المقام الأول إلى أنه بعد الحرب التي اندلعـت بين روسـيا وتركيا (١٨٠٦-١٨١٢) قد انضمت بيسـارابيا [٤٣٥]* [٤٣٦] إلي روسـيا ، حيث كان السـيناويون يمتلكـون بعـض الضيـاع المهـداة لهم ، من ملـوك وأباطـرة مولدافيا . وتؤكد المادة السابعة من معاهدة بوخارست للسلام ١٨١٢ ، والتي أكدت علي حقوق الأفراد

٤٣١ بياتنسكي . يو ، المرجع السابق صـ ٣٤ .

٤٣٢ رحلة فاسيلي جريجوريفيتش بارسكي بلاكي ألبوفا وهو أوكراني الأصل ، راهب من أنطاكية ، قام بعدة رحلات للأماكن المقدسة في كل من آسيا ، وأوروبا وأفريقيا ، بدأت في عام ١٧٢٣ ، لتنتهي في عام ١٧٤٧ ، سانت بطرسبورج ، ١٧٨٩ ، صـ٢٧١ : صـ٢٧٢ .

٤٣٣

٤٣٤ الحج أو الرحالة الكهنوتي إيبوليت فيشنيفسكي، موسكو، ١٨٧٧، صـ ١٣٣.

٤٣٥ * بيسارابيا هو مصطلح يشير إلى منطقة جغرافية تقع في أوروبا الشرقية يحدها من الشرق نهر الدنستير ومن الغرب نهر بروت (المترجم) .

في الملكية في بيسارابيا ، وفي مارس من عام ١٨١٧ ، سرت تلك المادة على باقي العقارات التابعة للدير [٤٣٧].

وفقاً لعملية جرد أملاك الأديرة في الخارج ، والتي جرت في بيسارابيا في عام ١٨٨٠ ، تبين أن دير سيناء يمتلك حوالي ثلاث عشر ضيعة في كيشنيفسك ، وأرخيفمنسك ، وياسك ، وساروكس بمساحة إجمالية تصل إلى ١٥٠٤٩ فدان . وكان يُزرع بها محاصيل زراعية مختلفة ، من فاكهة وعنب وتبغ [٤٣٨] . ولكي ندرك قيمة وأهمية هذه الأملاك في عملية تمويل الأماكن المقدسة في سيناء ، علينا أن نحكم من خلال بنود المصروفات الخاصة بميزانيتهم في عام ١٨٩٠ حيث ساهمت أملاك منطقة بيسارابيا بحوالي ٦٠ ألف فرنك من إجمالي ١٠٥ ألف ، وساهمت المزارع في كل من كييف وتيفليس بثلاثة آلاف من عائدات الأوراق المالية الروسية [٤٣٩] . وهكذا نجد أن السيناويين كانوا يحصلون على ثلثي دخلهم من الإمبراطورية الروسية . إن هذا المعقل القديم للأرثوذوكسية يعيش مؤخرا وبشكل رئيس بفضل الأموال الهائلة التي ترسلها حكومة الإمبراطورية الروسية من عوائد أملاك بيسارابيا - وذلك وفقاً لما كتبه الدبلوماسي أ.أ سميرنوف بالخارجية الروسية عقب زيارته إلى سيناء في عام ١٩١٠ – والذي أشار إلى : " أن العلاقة المادية مع وطننا كانت السبب الرئيس وراء احتفاظ الكنيسة المستقلة في سيناء بأفضل مستوى في علاقاتها مع روسيا وهو ما يمثل مسألة في غاية الحيوية والأهمية " .[٤٤٠]

في جورجيا كان السيناويون يمتلكون ضيعة ميجريفسك في مقاطعة جوريسكي بمساحة ٦٨٥ فدان ، وضيعة في تفليس ، وكنيسة لسانت كاترين بمساحة ٤٠٠ متر مربع [٤٤١] . وقد بنى تلك الكنيسة في عام ١١٢٣ القيصر الجورجي ديفيد الثالث . وقد تبرع بتلك الكنيسة لصالح دير سانت كاترين في سيناء . أثناء الثورة في عام ١٩٠٥ احترقت تلك الكنيسة ، ودمرت بالكامل . وطلب المطران بورفيري الثاني مطران سيناء

٤٣٧ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ١٥٩ ، قسم شئون الأفراد والشئون التجارية ، أملاك بيسارابيا (١٨٤٩-١٩١٧) ، وثيقة رقم ٨١ ، سطر رقم ٣ .

٤٣٨ المرجع السابق ، وثيقة رقم ١٠٤ ، السطور : ١٣ ، ١٤.

٤٣٩ المرجع السابق ، ملف رقم ٣١٧ (القنصلية الروسية في مصر) ١٧٩٦- ١٩٣٢ ، حافظة ٨٢٠/١، وثيقة ٥٧٢ ، السطر رقم ٦٨ .

٤٤٠ المرجع السابق ، المائدة المستديرة باليونان ١٨٢٥-١٩١٧ ، حافظة رقم ٧٩٨ ، وثيقة رقم ٣١٠٨، السطر الأول .

٤٤١ المرجع السابق ، ملف ٣١٧ ، حافظة رقم ٣\٨٢٠ ، وثيقة ٢٤٦ ، السطر ١٠ .

من روسيا في عام ١٩٠٨ أن تخصص ١٥٠ ألف روبل لإصلاح الكنيسة . وكذلك تخصيص الريع القادم من المزارع في تيفليس ، بيد أن طلبه هذا قوبل بالرفض [٤٤٢] .

في عام ١٧٣٨ أوصى اليوناني ستوماتي ، وهو أحد سكان كييف بإهداء قطعة أرض يملكها ، لصالح الكنيسة في سيناء لبناء كنيسة مكرسة لسانت كاترين . وبعد مرور ست سنوات نفذت الإمبراطورة إليزابيث بيتروفنا هذه الوصية . وفي عام ١٧٤٨ تم تشييد دير تابع لكنيسة سيناء الأرذوكسية وقد ظل قائماً حتى مطلع الثلاثينيات [٤٤٣] .

على مدار عشرات السنوات ، تم تأجير أملاك بيسارسكي إلى بعض المستأجرين من الأفراد وبعد ذلك وجدت الحكومة الروسية أن تلك الأملاك لا يُستفاد بها بالشكل الأمثل، وفي التاسع من مارس من عام ١٨٧٣ تم اتخاذ قرار أن تستأجر الدولة تلك الأملاك في شكل إيجار دائم . وانتقلت إدارة تلك الأملاك إلى وزارة أملاك الدولة وتم تكليف وزارة الخارجية بإرسال عوائد الإيجار إلى الملاك . ورأي المسؤلون الروس آنذاك ، طالما أن هدف التبرع من تلك الأملاك كان يتمثل في الانفاق المادي ، ليس فقط على دير سانت كاترين في سيناء فحسب ، بل وكذلك على المدارس والكنائس والجمعيات الخيرية في منطقة بيسارابيا، فقد تقرر تقسيم عوائد تلك الأملاك إلى خمسة أقسام علي النحو التالي : خُمسين من حق الدير ، وخمسين من حق مجلس المنطقة في بيسارابيا ، والخُمس الباقي للمصروفات الإدارية [٤٤٤] .

يبدو أن السيناويين لم يرحبوا بهذا القرار . ولكنهم في الوقت نفسه لم يكن لديهم الفرصة لمجرد الحديث عنه . وفي عام ١٨٨٣ توجه المطران سيانسكي كاليسترات بطلب إلى الإمبراطور ألكسندر الثالث ، يناشده بإعادة إدارة أملاك بيسارابيا إلى الدير مرة أخرى متعللاً بحجة أنه أثناء قيام الإنجليز باقتحام الإسكندرية في صيف ١٨٨٢ احترقت كافة الأملاك التي تدر دخلاً للدير ، وبات الدير في أمَس الحاجة إلى مصروفات إضافية [٤٤٥] .

٤٤٢ المرجع السابق ، ملف ١٤٩ ، مائدة تركيا (الجديدة) ١٨١-١٩١٧ ، الحافظة ٥٠٢٦ ، وثيقة رقم ٤٣١٢ ، السطور : ١ ، ٢ .

٤٤٣ بيرميكوف . ب «إبتسامة أبوالهول» ، الطبعة الثانية ، موسكو ١٩٩١ ، صـ ٢٢٤ .

٤٤٤ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، الملف رقم ١٥٩ ، حافظة رقم٤٦٢ ، وثيقة رقم ٨١ ، السطور من ٥ : ٨ .

٤٤٥ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، الملف رقم ١٤٩ ، الشأن التركي (١٨١٨-١٩١٧) حافظة رقم٥٠٢ ، وثيقة رقم ٣٩٣٢ ، السطور من ٢١ : ٢٣ .

لم يُنظر في مسألة عودة الأملاك للدير مرة ثانية ، بيد أن السفير الروسي في القسطنطينية أ.ا.نيليدوف اقترح زيادة نصيب نفقات الدير في سيناء . وكتب السفير في سانت بطرسبورج :

" إن الأراضي والمزارع المملوكة للدير في مصر لا تحقق له أية عوائد تُذكر ، كما أن غالبية زوار طور سيناء هم من الفقراء ، ولا يعودون بأية فائدة على الدير ، هذا بالإضافة إلى أن انخفاض سعر الروبل لدينا في غضون الإثنتي عشرة والأربعة عشر عاماً الأخيرة ، قد أدى إلى تقلص حجم العوائد من أملاك بيسارابيسك ، وظلت احتياجات الدير الذي لم يعد ينتج أي شئ ، و يحصل حتى على الخبز من مصر لأجل الرهبان كما هي [٤٤٦] . وفي الرابع من مايو ١٨٨٤ ، قرر مجلس الوزراء زيادة نصيب الدير من عوائد أملاك بيسارابيا من خُمسين إلى ثلاثة أخماس [٤٤٧] .

على مدار ثمانية أعوام ازداد نصيب الدير إلى أربعة أخماس تقريباً ، واتخذت الحكومة الروسية هذا القرار في الثامن والعشرين من أبريل ١٨٩٢ [٤٤٨] ، وذلك رداً على طلب مطران سيناء . وعزز طلبه قائلاً إن الزلزال القوي الذي ضرب البلاد وإصلاح الضرر البالغ الذي أحدثته السيول بالدير يتطلب الكثير من النفقات المالية [٤٤٩] .

ظلت روسيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر تدفع سنوياً مبالغ محددة لمطرانية الشرق الأربعة ، وكذلك الأديرة الشرقية . ووفقا للقائمة التي تعود لعام ١٨٢٧ كان من المفترض أن يحصل دير سانت كاترين علي مبلغ سبعين روبل من الفضة ، وهو يقارب تقريباً المبلغ الذي يحصل علية البطاركة الذين كان يخصص لهم مائة روبل فضة [٤٥٠].

كانت تبرعات الروس للدير كثيرة ، والتي نذكر منها على سبيل المثال تبرعات السيدة ناتاليا بيكوفا أرملة أحد التجار من رايبانسك [٤٥١]* والتي تُوفيت في عام ١٨٦٨ قد

٤٤٦ المرجع السابق ، السطر ٢٦ .
٤٤٧ المرجع السابق ، السطر ٥٢ .
٤٤٨ المرجع السابق .
٤٤٩ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، الملف رقم ٣١٧ ، حافظة ١١٨٢٠ ، وثيقة رقم ٥٧١ ، السطر ٧٦ .
٤٥٠ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، الملف رقم ١٨٠ ، القنصلية في القسطنطينية ، حافظة رقم ١١٥٧١ ، وثيقة رقم ٣٥٢٥ ، السطر رقم ٣ .
٤٥١ * رايبانسك : هي إحدى مدن روسيا في الكيان الفيدرالي الروسي إقليم ياروسلاف (المترجم).

تبرعت بثلاثة تذاكر بقيمة ٥٪ من البنك المركزي بمبلغ ٧٠٠ روبل [٤٥٢]. وفي عام ١٨٦٩ تبرعت أنستاسيا ليخاتشيفا بثوب مزركش بمبلغ ١٣ روبل [٤٥٣]. وأ.ليوبوف إيفانوفنا تروخينا التي تُوفيت في عام ١٩١٠ كانت قد تبرعت للدير بحوالي ٤٠٠ روبل [٤٥٤].

ساهم امتلاك الكنيسة الأرثوذكسية في سيناء لأملاك في بيسارابيا وفي كييف وتفليس في إرغام قيادة الكنيسة على زيارة روسيا بصورة دورية، هذا إلى جانب الزيارات التي كان يقوم بها الحجاج الروس لدير سانت كاترين، مما دفع القساوسة في سيناء لتعلم اللغة الروسية. وفي عشرينيات القرن التاسع عشر، كان المطران سيانيسكي قنسطنطين يراسل المبعوث الروسي في القسطنطينية البارون ستروجانوف، باللغة الروسية. وكتب ستروجانوف في الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٨٢٠ قائلاً: "لم أقرأ الصحف الروسية منذ وقت طويل، وأنت بذلك تكون قد أسديت لي معروفا" [٤٥٥]. وبعد الحريق الذي إندلع في كنيسة سانت كاترين في تفليس [٤٥٦] * في عام ١٩٠٥ عاد إلى سيناء الأرشيمندريت نيوفيت الذي يعرف اللغة الروسية جيداً، وأصبح هو حلقة الوصل وراعي راعياً للحجاج الروس [٤٥٧].

ظلت رحلة الحج إلى سيناء بمثابة رحلة حقيقية باسم الإيمان وذلك حتى منتصف القرن التاسع عشر. لكنها في نفس الوقت ظلت رحلة شاقة، وتستغرق عدة شهور بل وقد تصل أحياناً إلى سنوات، وكان المتدينون فقط هم من لديهم الدافع لهذ الرحلة الشاقة. بيد أن الموقف تغير تماماً بعد أن تم إنشاء شركة الملاحة والتجارة الروسية في عام ١٨٥٦ والتي قامت بعد عامين من إنشائها بتأسيس خط بحري ملاحي يبدأ من الأوديسا – القسطنطينية – بيري- سميرنا- رودس – الإسكندرونة- بيروت – يافا – الإسكندرية وفي العام الأول من تشغيل هذا الخط تم تسيير حوالي ٤٢ رحلة بحرية، نقل علي أثرها حوالي ١٢,٤ ألف راكب كان معظمهم من الحجاج. وفي العام الثاني تضاعف حجم

٤٥٢ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية، الملف رقم ٣١٧، حافظة رقم ١\١٨٢٠، وثيقة رقم ٥٦٧، سطر ٣٣.

٤٥٣ المرجع السابق، السطر ٥٤.

٤٥٤ المرجع السابق، وثيقة رقم ٥٦٧، السطر ١٧.

٤٥٥ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية، الملف رقم ١٨٠، حافظة رقم ١\٥١٧، وثيقة رقم ٣٥٢٠، السطر ١٥.

٤٥٦ * تفليس: هي تبليسي وهي عاصمة جورجيا وأكبر مدنها.

٤٥٧ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية، الملف رقم ١٤٠، حافظة رقم ٤٩٧، وثيقة رقم ٣١٠٨، السطر رقم ٢.

الرحلات والركاب [٤٥٨] . ذات مرة كتب إ.أ ليكس القنصل العام الروسي في مصر في تقرير عام ١٨٨١ : "إن عدد الحجاج الروس الذين يذهبون عبر الإسكندرية يتزايد كل عام ، ولكن معظمهم يذهب إلى القدس والقليل منهم يتوجه إلى سيناء : ووصل عددهم في عام ١٨٨٠ إلى نحو ٨٧ حاجاً ، وفي عام ١٨٨١ إلى ٦٠" [٤٥٩] . حيث كانوا يخشون شدة حرارة الجو ، والسير عبر الصحراء الموحشة .

في مطلع القرن العشرين وبشهادة الباحث المصري نعوم بك شُقير . أنه قد زاد عدد الحجاج الروس إلى سيناء . وكتب في عام ١٩١٦ : "إن من يذهبون إلى الحج إلى سيناء أعدادهم قليلة في أيامنا الحالية ، وخاصة إذا لم يكونوا من الروس المعروفين مثل "سكان موسكو" . ففي كل عام تسافر مجموعات من الرجال والنساء تصل أعدادهم في المتوسط إلى نحو مائتين فأكثر . ويقضون في الدير حوالي ثمانية أيام ، كل هذه المدة كانوا يقضونها في عمل جولات بالمناطق المحيطة بالدير، وليس فقط الإكتفاء بمشاهدته . فغالبية الحجاج الروس ينتقلون من القدس في عيد رأس السنة أو يوم التعميد ، والبعض الآخر يسافر من بلده مباشرة قبيل يوم الاحتفال بميلاد القديسة كاترين ، الذي يوافق الخامس والعشرين من يناير والذي يحتفل به الرهبان بشكل مهيب . ويتوجه الحجاج أولاً إلى مدينة السويس ، ومنها إلى منطقة الطور حتى يصلوا إلى دير سانت كاترين أو ينتقلون مباشرة من السويس إلى الدير" [٤٦٠] .

حول حقيقة أن جزءاً من الحجاج الروس كان يتوجه من فلسطين إلى سيناء يحدثنا كاتب هذه السطور من خلال الحقيقة المدهشة التي عثر عليها في عام ١٩٩١ على مسافة ١٦٠ كم شمال شرقي دير سانت كاترين ، وبالتحديد في الطريق القديم المؤدي إلى فلسطين في وادي خضرا ، حيث توجد صخرة كان يوقع عليها الرحالة أسماءهم منذ مئات السنين . وكان من بينها توقيع مكتوب فيه : "في الطريق إلى دير سانت كاترين" . وكان مكتوباً بالحروف الروسية البدائية قبل تعديلها" [٤٦١].

٤٥٨ مصر في عيون الروس : القرن التاسع عشر وبداية العشرين : السياسة ، الإقتصاد والثقافة \\ مجموعة وثائق من إعداد وتقديم جينادى جورياتشكين ، موسكو ١٩٩٢ ، صـ ١٦ : صـ ١٧ .

٤٥٩ المرجع السابق ، صـ ١٢٥ .

٤٦٠ ناعوم بك شقير ، سيناء وتاريخ العرب ، القاهرة ، ١٩١٦ ، صـ ٢٢٥ (باللغة العربية) .

٤٦١ فلاديمير بيلياكوف «مصر بالطول والعرض «المرشد التاريخي ، موسكو ٢٠٠١ ، صـ ٢٩٦.

كتب الدبلوماسي الروسي أ.أ سميرنوف إلى وزارة الخارجية والذي توجه إلى الدير في عام ١٩١٠ إن عدد الحجاج الروس الذين يذهبون لزيارة الأماكن المقدسة في سيناء سنوياً يتراوح ما بين ٢٠٠-٣٠٠ حاج حيث يقول : " .... لقد أتيحت لي الفرصة للتعرف على أجواء السفر المريحة وعلى حفاوة الاستقبال بالنسبة للحجيج الروس داخل الدير ، وكان البعض منهم يذهب مباشرة من السويس إلى الدير . وكنتُ أتحدث مع هؤلاء الأفراد الذين أتوا من شتى بقاع الأراضي الروسية ومن سيبريا ، كما أعربوا من جانبهم عن بالغ سعادتهم ورضاهم بالوضع العام للرحلة والاستقبال الحميم في سيناء " [٤٦٢].

هذا وعلى الرغم من إنشاء الخط الملاحي الأوديسا - الإسكندرية ، إلا أن رحلة الحج إلى سيناء ظلت رحلة شاقة ، وتتطلب المزيد من الوقت والجهد والأموال أكثر من الرحلة إلى فلسطين . فعند الوصول إلى الإسكندرية لابد من ركوب القطار للذهاب إلى القاهرة ، ثم تغيير الخط لركوب القطار إلى السويس . وفي ميناء السويس الذي يطل على البحر الأحمر كادت السفن التي تبحر إلى مدينة الطور، تلك المدينة التي تقع غرب سواحل السويس ، أن تكون نادرة ، فهي كانت بمثابة أقرب نقطة إلى الدير . وتستغرق الرحلة من الطور إلى جبل سيناء ما بين ثلاثة وأربعة أيام فوق ظهور الجمال ، وذلك وفقا لما أشار إليه أ.أ سميرنوف [٤٦٣] . ولم يكن بمقدور كل الحجيج تحمل عبء هذا الطريق عبر الصحراء الموحشة . وفي الرابع من سبتمبر ١٨٩٥ لقت ابنة الشماسة تاتيانا نيكراسوفا مصرعها جراء السير لمدة أربعة ساعات من دير سيناء في طريق العودة من سيناء إلى السويس . وقد تم دفنها في اليوم التالي في مقبرة الدير [٤٦٤] .

كان الطريق من السويس إلى الدير يستغرق أسبوعاً كاملاً فوق ظهور الجمال وكان أ.ف يليسيف يستخدم هذا الطريق لكي يصل إلى جبل سيناء في عام ١٨٨١ . بينما كان يلتقي هناك في هذا الطريق مع أقرانه من الروس . وكتب يليسيف [٤٦٥] يقول : "كان من الغريب أن ترى فلاحين على شواطئ البحر الأحمر ، في زيهم التقليدي الذي هو عبارة عن الحذاء الكبير ، والأكمام الحمراء ، والمعاطف ، والبرنيطة ، والمخلة فوق أكتافهم ، وهم يمسكون بفروع الشجر السيناوية (يقصد بها فروع شجرة العليقة المحترقة – فلاديمير بيلياكوف) . ويتضح من حديثه كذلك ، أن الحجاج الروس اتسموا بالإيمان بالله والبساطة في التعامل وقوة الشخصية ، وكذلك بالصبر على المتاعب

٤٦٢ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، الملف رقم ١٤٢ ، حافظة رقم ٤٩٧ ، وثيقة رقم ٣١٠٨ ، السطر رقم ١٢.

٤٦٣ المرجع السابق ، السطر الأول .

٤٦٤ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، الملف رقم ١٤٩ ، حافظة ٥٠٢ ، وثيقة رقم ٦٦٥ ، السطر الأول .

٤٦٥ يليسيف. أ . ف «الطريق إلى سيناء» سانت بطرسبورج ١٨٨٣ ، صـ ٣ .

وتحمل المشاق . وقد أُعجب المصريون كثيراً بهذه الصفات". ويستمر الرحالة الروسي في الكتابة : " كنتُ أجد حولي جواً من الصداقة والوئام في كل مكان ، وأسمع عبارات الترحيب التي كانت تُقال باللغة الروسية المكسرة . ولم يكن هناك أي من مشاعر العداء في أي مكان " [٤٦٦].

أشار نعوم بك شقير إلى : " أن الحجاج الروس كانوا يقيمون على حساب الدير أثناء إقامتهم بالدير ، ومقراته في القاهرة والسويس وطور سيناء . وكان البعض منهم يتبرع بجزء من أمواله وأغراضه الثمينة لصالح الدير " [٤٦٧].

لم يكن الروس من أكثر الضيوف الدائمين لزيارة الدير في سيناء فحسب ، بل أصبحوا من الطلائع المتقدمين في دراسة كنوز الدير التاريخية – الثقافية ، والعمل على إصلاحها . فكان يوجد إلى جوار لوحة " تجلي الرب " ، وهي من الأعمال البيزنطية التي تعود للقرن الرابع في كنيسة الدير ، هناك رقعة من المرمر منقوش عليها باليونانية : " الشماس صموئيل من روسيا أضاء تلك اللوحة في عام ١٨٣٧ " [٤٦٨].

كان الأرشمندريت بورفيري أوسبنسكي (١٨٠٤ـ ١٨٨٥) أول باحث في تلك المكتبة الثرية للدير . وقد قام بعدة زيارات إلى سيناء منذ بداية عام ١٨٤٥. ومع أول زيارة له للدير، أهداه الرهبان كتاباً مقدساً (سفر المزامير) يعود لعام ٨٦٢ ، وهو الكتاب المعروف بين الأوساط العلمية اليوم باسم " كتاب أوسبنسكي المقدس" ٥١ .

هذا وقد حصل أوسبينسكي على هدايا أخرى ثمينة من الدير، ومنها ثلاث أيقونات تعود للقرن الرابع الميلادي ، هذه الأيقونات قد رسمت "بتقنية اللوحة الفنية " –" "سيرجيوس و وواخس" ، " أم الإله مع الطفل الرضيع" ، "يوحنا المعمدان". وتنتمي معظمها إلى مجموعة الأيقونات التي تعود إلى فترة محاربة رسم الأيقونات (٧٢٦ـ ٨٤٣) . ولم تكن مصر في تلك الحقبة تحت حكم الإمبراطورية البيزنطية ، بل كانت تحت الحكم الإسلامي الذي تعامل مع المكان المقدس بتسامح كبير . وتوجد هذه الأيقونات في الوقت الحالي في متحف الفن الشرقي والغربي باسم بوجدان وفارفارا خانينكو بالعاصمة الأوكرانية كييف [٤٦٩].

٤٦٦ المرجع السابق ، صـ ٢٣ .
٤٦٧ ناعوم شقير بك ، المرجع السابق ، صـ ٢٢٧ : صـ ٢٢٨ .
٤٦٨ «د. نيكيتيش» الدير الأرثوذكسي في سيناء \\ آسيا وأفريقيا اليوم ، يونيو/ حزيران ١٩٨٨
The Monastery of St. Catherine. London, 1996, p. 97.51-a
٤٦٩ تم نقله إلى متحف بوشكين للفنون الجميلة في موسكو في مطلع عام ٢٠٠٢ ، وقد حظى هذا الحدث باهتمام بالغ في المجتمع الروسي .

في عام ١٨٤٥ اكتشف أوسبينسكي الذي عرفه العالم بأنه مكتشف "قانون سيناء" حيث اكتشف نسخة مخطوطة كاملة للإنجيل تعود للقرن الرابع عشر، كُتبت هذه النسخة على ورق الرق المقوى ، وكانت تتألف من ٩٢ كراسة منفصلة ، وتضم كل كراسة من ٤ – ٨ ورقات . وقد إختفت أول ٣٦ كراسة " أو كما قيل لي إنها مُخبأة داخل إحدى جدران الدير" [٤٧٠] .

قد تأكدت صحة هذه المعلومات بعد أكثر من مائة عام . وفي عام ١٩٧٥ أثناء عملية إعادة البناء لأحد المباني الذي التهمته النيران ، اكتشف الرهبان إحدى الغرف السرية في الدير ، وكان بداخلها أكثر من ألف ونصف مخطوطة ، وكتب من أوائل المطبوعات وأُطلق على هذا الإكتشاف اسم "المجموعة الجديدة" . وبعد فحص مقتنيات تلك المجموعة ، عثر الرهبان على عشرين ورقة من ورق الرق المقوّى ، به صفحات غير كاملة "قانون سيناء" وبعض من مقتطفاته [٤٧١].

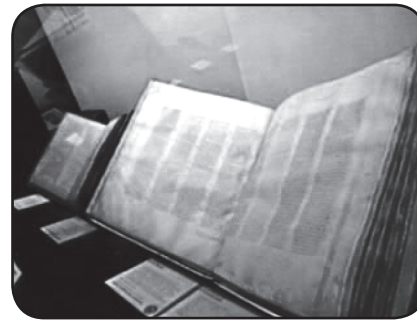

صورة قانون سيناء المتواجدة بمتحف لندن

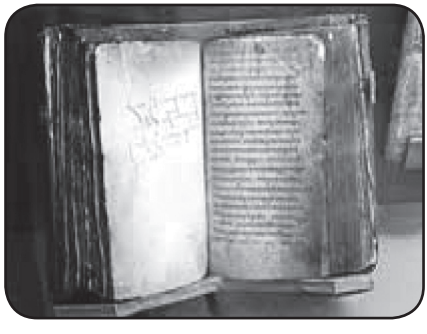

صورة قانون سيناء

٤٧٠ فيما يتعلق بدساتير سيناء ، فهي تضم نسخة غير كاملة من كتاب العهد القديم ، ونسخة كاملة من العهد الجديد مع رسالة للقديس فارناف الرسول ، وكتاب إيرما ، والأرشمندريت بورفيريا أوسبنسكي، سانت بطرسبورج ، ١٨٦٢ ، صـ ٢ .

٤٧١ فلاديمير بيلياكوف «أفريقيا مأوى للطيور المهاجرة « – الروس في مصر ، موسكو ٢٠٠٠، صـ ١٧.

علم البروفسير الألماني قنسطنطين فون تيشيندورف ، المتخصص في علم اللاهوت وتاريخ الكتابة ، عن ذلك الكنز الذي عثر عليه أوسبنسكي . وفي عام ١٨٥٩ وبمساعدة الدبلوماسيين الروس ، حصل تيشيندورف على إذن من الرهبان يسمح له بالحصول على هذا المخطوط لمدة معينة لغرض الدراسة والبحث والنشر [٤٧٢] . وبعد مرور ثلاث سنوات تم إصدار المخطوط في أربعة مجلدات في سانت بطرسبورج [٤٧٣] . بيد أن روسيا لم تكن ترغب في البُعد عن هذه المخطوطة النادرة ، والتي تأتى من حيث القدم بعد " قانون الفاتيكان " من حيث قيمتها التاريخية . لهذا الغرض أجرت مباحثات طويلة مع أعضاء الدير في سيناء . و أسفرت هذه المباحثات عن إبرام قانون لتمليك "قانون سيناء" لروسيا في عام ١٨٦٩ ،. وعلى أثر ذلك، فقد تبرع الإمبراطور ألكسندر بحوالي ٩٠٠٠ روبل لصالح الدير [٤٧٤] .

في عام ١٨٧١ وبهذه الأموال ، تم إنشاء برج أجراس في كنيسة التجلي . ويصف الباحث الأمريكي جورج فورست هذه الأجراس بأنها " هدية روسيا " [٤٧٥] . كما يضيف كتاب " دليل الدير" الذي أصدرته كنيسة سيناء الأرثوذكسية ، أن هناك تسعة من هذه الأجراس المختلفة الأحجام هي "هدية من القياصرة الروس" [٤٧٦] . وقد تم صناعة هذه الأجراس بالفعل في موسكو في عام ١٨٧٠ في مصنع ديمتري سامجين ، بأموال التبرعات والصدقات ، كما أننا نجد توقيعاً باسم أصحاب تلك التبرعات على كل جرس [٤٧٧] .

أما فيما يتعلق بقانون سيناء فهو موجود الآن في المتحف البريطاني في لندن . وفي عام ١٩٣٣ باع قادة الاتحاد السوفيتي هذا الكتاب بمائة ألف جنيه إسترليني [٤٧٨] .

في عام ١٨٧٠ أجريت أول تجربة لفهرسة المخطوطات اليونانية بمكتبة الدير ، على أيدي الأرشيمندريت أنطونين كابوستين . حيث قام بفهرسة ١٣١٠ مخطوطاً أي ما يعادل نصف حجم المخطوطات الموجود آنذاك بالمكتبة . وقد ترك كابوستين نسخة من هذه الفهرسة

٤٧٢ للمزيد حول تاريخ إقتناء روسيا لقانون سيناء ، أنظر : Volkoff O.V. La recherche de manuscrits en Egypte. Le Caire, 1970, p. 197-219

٤٧٣ Bibliorum Codex Sinaiticus. T. 1-4, СПб., 1862

٤٧٤ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم 317 ، حافظة رقم 1\821 ، وثيقة رقم 567 ، السطر 13.

٤٧٥ Forsyth G. The Monastery of St. Catherine at Mount Sinai: the Church the Fortress of Justinian. In: Galey, John. Op. cit., p. 56

٤٧٦ بابايوان . أ - «دير سانت كاترين» مترجم من الإنجليزية ، فلاديمير بيلياكوف ، إصدار دير سانت كاترين ، ١٩٩٦ ، صـ ٢٦ .

٤٧٧ ألفيروفا . ف ، المرجع السابق ، صـ ٢٠ : صـ ٢١ .

٤٧٨ بابايوان . أ ، المصدر سالف الذكر ، صـ ٣٣ .

لدى الدير ،وقام بإهداء النسخة الثانية للهيئة الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية[٤٧٩] .

تلك التجربة التي بدأها كابوستين ، قام بإستكمالها باحث روسي آخر يُدعى ف.ن.بينشيفيتش . فقد ارتحل إلى سيناء ثلاث مرات في أعوام : ١٩٠٧، ١٩٠٨ ، ١٩١١ وقد أنهى عملية فهرسة المخطوطات اليونانية . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل قام بينشيفيتش بإصدار أول وصف أثري للدير . وقد بذل مجهوداً جباراً في وضع وإصدار دليل إرشادي كبير بـ " أسماء الشخصيات التي زارت سيناء ، وبعض الأعمال عن سيناء "[٤٨٠] .

لم يكن من الطبيعي أن يُكتب النجاح لمثل هذا العمل الشاق الطويل ، لولا مساعدة آباء الكنيسة في سيناء ، وقد حظيت تلك المساعدة بتقدير واضح في روسيا . ففي السادس عشر من ديسمبر من عام ١٩٠٩ حصل مطران سيناء بورفيري الثاني على وسام القديسة أنَا من الدرجة الأولى وذلك نظير " مساعدته في الأعمال العلمية للبروفسير ف.ن.بينشيفيش من أكاديمية سانت بطرسبورج الدينية ، الذي تم إرسالة في مهمة علمية إلى شبه جزيرة سيناء"[٤٨١] ، في شبه جزيرة سيناء . ونشير هنا إلى أن أعضاء الكنيسة في سيناء قد حصلوا على أوسمة ومكافآت من الإمبراطورية الروسية ، وذلك لأكثر من مرة نظير مساعدتهم للروس . حيث حصل المطران بورفيري الأول وخليفته في عام ١٨٩١على وسام القديسة أنَا من الدرجة الأولى[٤٨٢] ، وفي عام ١٩١٠ حصل الأرشيمندريت نيوفيت على وسام القديسة أنَا من الدرجة الثانية ، وكان هو المسئول في دير سيناء عن تحديد مكان إقامة الحجاج الروس[٤٨٣].

تجدر الإشارة إلى أن الباحثين الروس ، كانوا أول من اهتم بمجموعة الأيقونات القيمة المحفوظة داخل الدير . ففي عام ١٨٨٨ وضع البروفسير أ.أ ديمتريفسكي الأستاذ بأكاديمية كييف الدينية ، كاتالوجاً يضم أكثر من ٥٠٠ أيقونة[٤٨٤] أي ما يعادل ثلث ما كان يحويه الدير آنذاك .

٤٧٩ وصف المخطوطات اليونانية بمعبد دير سانت كاترين ، المجلد الأول ، سانت بطرسبورج ، ١٩١١ ، صـ ١٧.

٤٨٠ ذاكرة سيناء . الآثار والجغرافيا ، ب . ف بينشيفيتش ، الإصدار الأول ، سانت بطرسبورج ، ١٩١٢ ، الإصدار الثاني ١٩٢٥.

٤٨١ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة ١١٨٢١ ، وثيقة رقم ٥٧٦ ، السطر ١٦ .

٤٨٢ المرجع السابق ، وثيقة رقم ٥٧١ ، السطر ٥٦ .

٤٨٣ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ١٤٢ ، حافظة رقم ٤٩٧ ، وثيقة رقم ٣١٠٨ ، السطر الخامس .

٤٨٤ نيكيتن . د ، المرجع السابق .

بعد أحداث ثورة ١٩١٧ انقطعت صلات روسيا العلمية ورحلات الحج إلى سيناء . والسبب الرئيس وراء ذلك يتمثل في إضطراب الوضع داخل روسيا ، وهناك سبب آخر يتمثل في أن الإنجليز الذين كانوا يحكمون مصر آنذاك ، كانوا يحرصون على عرقلة تطور علاقة مصر مع دولتنا ، خشية تغلغل الأفكار الشيوعية إلى البلاد . وكانت النتيجة تأخر البدء في إقامة العلاقات الدبلوماسية بين مصر والاتحاد السوفيتي التي بدأت عام ١٩٤٣ .

في السنوات الأخيرة عادة رحلات الحجاج الروس إلى سيناء من جديد ، وبدأ يتزايد تعداد الحجاج الروس إلى دير سانت كاترين . ولهذا فقد تم ترجمة كتاب دليل الدير إلى اللغة الروسية[٤٨٥]. وظهرت أولى المطبوعات التي تروي تاريخ الأماكن المقدسة في سيناء[٤٨٦]. وعلى الرغم من ذلك ، مازالت الصلات العلمية مع الدير مقطوعة حتى الآن .

فعلى مدار قرن بأكمله ، وفي الوقت الذي لم يشارك فيه العلماء الروس في الدراسات والأبحاث الأثرية والثقافية – التاريخية للكنوز التي يحويها الدير ، تقدم علماء الغرب في هذا المجال بصورة مذهلة[٤٨٧] . ولكنهم تطرقوا بالكاد إلى جانب على درجة من الأهمية بالنسبة لنا ، ألا وهو دراسة الجانب المادي لعلاقة روسيا بالدير التي استمرت عدة قرون . وهناك أدلة عدة لذلك .

سبق وأن ذكرنا الضريح الفضي المطلي بالذهب ، ليضم رفات القديسة سانت كاترين والذي تم إهدائه في عام ١٦٨٧ وتم إرساله في عام ١٨٦٠ ، من قبل أميرة روسية من العائلة المالكة .[٤٨٨] ، هذا بالإضافة إلى برج الأجراس الذي تم إنشاؤه بأموال روسية وأجراسه التسعة المصنوعة بأيدٍ روسية . كذلك يوجد بالدير مجموعة هائلة من قلب الثقافة الروسية مثل الأدوات الكنيسة والأيقونات والمخطوطات ، وأوائل المطبوعات . وقد شاهد المؤلف بعينه عدداً من تلك الكتب أثناء زياراته المتعددة للدير بداية من عام ١٩٨٨ والجولات التي قام بها تحت قيادة مطران الدير دميان .

٤٨٥ بابايوان . ي ، المرجع السابق .
٤٨٦ ألفيروفا . ف ، المرجع السابق ، دير سانت كاترين ، موسكو ١٩٩٨ .
٤٨٧ أنظر : على سبيل المثال مقدمة الأساتذة الأمريكان جورج فورست وكورتز فايتسمان في كتاب (Galey, John. Sinai and Monastery of St. Catherine (Cairo, 1985) أو في كتاب " The Monastery of St. Catherine" . الصادر من المؤسسة الدولية لدير سانت كاترين ، في لندن ١٩٩٦ .
٤٨٨ بابايوان . أ ، المرجع السابق ، صـ ١٣ .

أشار جريجوريفيتش بارسكي الذي زار سيناء في عام ١٧٢٨ : " إلى وجود عدد هائل من الأيقونات الصغيرة والكبيرة الحجم داخل الدير، رسمها فنانون مهرة من البندقية واليونان والبعض بيد فنانين روس مهرة "[٤٨٩] وفي يناير من عام ١٩٩٢ أتيحت الفرصة لمؤلف هذه المقالة، للتحقق من صحة تلك المعلومات، حيث عرض المطران دميان وكان شخصية معروفة للروس الأيقونات الروسية : "ميلاد السيدة العذراء" والتي تعود للقرن السابع عشر وأيقونة "البشارة" وتعود للقرن الثامن عشر في كنيسة العليقة الملتهبة. وفي الكنيسة الصغيرة المجاورة لشهداء سيناء عرض أيقونتان مترافقتان وهما أيقونة "العذراء إيفرسكايا"، وأيقونة "الرب القدير" وتوجد على الأيقونة الثانية تاريخ رسمها والذي يعود إلى الحادي والعشرين من ديسمبر ١٧٥٤. وعرض الأب سيلفان على المؤلف ثلاث أيقونات روسية محفوظة في عدة كنائس للدير. والأيقونات هي : "عيد الصعود" وتعود للقرن السادس عشر، وأيقونة "القديس نيكولاي"، وأيقونة "السيدة العذراء"[٤٩٠].

قد أشار د.نيكيتن في مقاله إلى الأيقونات الروسية الثلاث وهي :- أيقونة " تجلي الرب" وتعود للقرنين ١٥-١٦، وأهديت من موسكو للدير في نهاية القرن السادس عشر، وأيقونة "البشارة" وهي من أعمال الفنان رسام الأيقونات ماكاري أوستاتكوف، وتم نقلها للدير في عام ١٦١٠ (ومن المرجح أن يكون ذُكر ذلك فوق الأيقونة الموجودة في كنيسة العليقة الملتهبة) وأيقونة "ميلاد السيد المسيح" بالقرن السابع عشر، التي رسمها وأهداها سيميون بروزانوف[٤٩١].

أورد الباحث جون جالي في كتابه نسخاً لثلاث أيقونات روسية وهي :
"القديس سيرجي أمام السيدة مريم العذراء مع بطرس ويوحنا " القرن السابع عشر، وأيقونة " القديس نيكولاي" القرن السابع عشر[٤٩٢] (تلك التي أرانى إياها الأب سيلفان) وأيقونة "القديس أليكسي" القرنين السابع عشر والثامن عشر.

هذا، وقد اكتشف المهاجر الروسي البروفسير المؤرخ، جريجوري إيفانوفيتش لوكيانوف (١٨٨٥-١٩٤٥)، والذي وصل إلى الدير في عام ١٩٣٢ أيقونة ثلاثية في كنسية العليقة الملتهبة، وهذه الأيقونة هدية من القيصر أليكسي ميخائيلوفيتش. ويعتقد لوكيانوف أنها تنتمي لأعمال رسام الأيقونات المعروف ياكوف سلطانوف[٤٩٣].

٤٨٩ رحلة فاسيلي جريجوريفيتش بارسكي براكي ألبوف ... ، صـ ٢٧٢ .
٤٩٠ فلاديمير بيلياكوف «أفريقيا مأوى الطيور المهاجرة» ، صفحات ١٥ ، ١٨ .
٤٩١ نيكيتن . د ، المرجع السابق .
٤٩٢ Galey J. Op.cit., icons No. 76, 85 & 91
٤٩٣ Volkoff O.V. Voyageurs Russes en Egypte. Le Caire, 1972, p. 7, 319

نضيف هنا أن حامل أيقونات كنيسة دير جورجي رائيفسك في منطقة الطور والذي بُنى في نهاية القرن التاسع عشر، وينتمي إلى كنيسة سيناء الأرثوذكسية، كان من إهداء روسيا أيضا [٤٩٤]. وقد رأي كاتب هذه السطور الأيقونات الروسية في كنيسة القديس موسى في الدير النسائي في وادي فيران، الذي ينتمي إلى كنيسة سيناء الأرثوذكسية.

كذلك يوجد بمكتبة دير سانت كاترين الغنية التي لاتتفوق عليها، أي مكتبة أخرى غير مكتبة الفاتيكان، مخطوطات وكتب روسية قديمة، حيث يوجد في ما يُسمى بـ "المجموعة القديمة" حوالي ٤٠ مخطوطة سلافية، ومنها مخطوطات روسية[٤٩٥]، ولم تخضع كل هذه المحتويات للدراسة والبحث. كما توجد مخطوطات روسية في "المجموعة الجديدة" [٤٩٦]، وهي لاتزال في انتظار دراسات وأعمال الباحثين.

عرض المطران دميان على كاتب هذه السطور ثلاثة كتب روسية قديمة- وهي "المزامير" والذي يعود للقرن السادس عشر، وهومكتوب على ورق الرق، و غلاف سميك مع مشابك معدنية و" الإنجيل" ويعود للقرن السابع عشر، وأخيراً، عرض عليّ " أعمال الرسل " وقد تم طباعته في عام ١٧٣٨[٤٩٧]، في منطقة غار كييف بيتشرسكى [٤٩٨]*.

كما يوجد في الدير كذلك عدد لا بأس به، من الأدوات الكنسية المصنوعة في روسيا. وقد ذكرنا سابقا تابوتين وتسعة أجراس .وليس هذا كل شيء، بل قليل من كثير. ويبرز جون جالي في كتابه القلادة فائقة الصنع، التي تعود للقرن السابع عشر، وبداخلها الحجر الكريم الخاص بالقديسة كاترين المرصع بالياقوت واللؤلؤ [٤٩٩].

إن ما أوردناه هنا من نماذج الثقافة المادية الروسية، قليل من كثير تراكم على مدار قرون من تاريخ العلاقات المتميزة بين روسيا والكنيسة الأرثوذكسية بسيناء، تحويها جدران كنيسة دير سانت كاترين. ويؤكد المؤلف أن فهرستها ودراستها ستثمر عن قيمة علمية مهمة. وليس من المستبعد أنه خلال ذلك العمل يمكن التوصل إلى

٤٩٤ ألفيروفا . ف ، المرجع السابق ، صـ 172.
٤٩٥ Galey J. Op. cit., p. 154
٤٩٦ Tarnanidis J.C. The Slavonic Manuscripts Discovered in 1975 at St Catherine's Monastery on Mount Sinai. Thessaloniki, 1988
٤٩٧ فلاديمير بيلياكوف «أفريقيا مأوى الطيور المهاجرة» ، صفحات : 17 ، 18 .
٤٩٨ * منطقة كيفا - بيتشارسكايا لافرا : هي أول دير في كييف الروسية وتوجد الآن وسط كييف ، على الشاطئ الأيمن من نهر دنيبر (المترجم) .
٤٩٩ Galey J. Op. cit., object No. 139.

اكتشافات نادرة ، حيث إن الدير طوال أربعة عشر قرناً من وجودة ، لم يتعرض أبدا لأي نهب أوتدمير . ومن غير المستبعد أن هذا الدير يحوي نماذج من الثقافة المادية الروسية ، التي لا يوجد مثيلها حتى في بلدنا روسيا .

لمثل ذلك العمل ، وكذلك لكتابة تاريخ العلاقات بين روسيا وسيناء ، يمكن أن تمد أرشيفات الدير يد العون والمساعدة بدرجة كبيرة . بيد أن هذه الأرشيفات لن تكون متاحة للباحثين في المستقبل القريب ، حيث إن علماء من اليونان بدأوا للتو في وصف تلك الأرشيفات .

من خلال المبادرة التي تقدم بها كاتب هذه السطور يقوم مركز علوم المصريات باسم البروفسير ف.س.جولينشيف ، التابع لجامعة موسكو للعلوم الإنسانية ، بإعداد أول بعثة علمية روسية إلى سيناء منذ قرن ، بهدف فهرسة ودراسة مواد الثقافة الروسية المتواجدة بالدير .

قد حصلت البعثة على الموافقة المبدئية من المطران دميان ، مطران الدير في سيناء. ونظراً لأن هذه البعثة ستتوجه بغرض العمل والدراسة في دير ، وليس في متحف ، فقد كان من الضروري أن تلعب الكنيسة الأرثوذكسية الروسية دوراً هاماً ، في دعم ومساندة وإعداد تلك البعثة . وبارك البطريرك أليكسي الثاني ، بطريرك الكنيسة في موسكو والكنيسة الأرثوذكسية الروسية ، جميع أعضاء تلك البعثة في ربيع ٢٠٠٢ ، وكذلك ممثلي باقي التخصصات المختلفة في تلك البعثة .

الآن بات الأمر متوقفاً ، على تمويل نشاط تلك البعثة . وفي حالة الوصول إلى ممول وقيام البعثة بعملها ، فإن مادة عملها ستكون العلاقة بين روسيا ودير سيناء الممتدة لقرون طويلة ذات النتائج الفريدة بل وسيصبح هذا العمل بمثابة قاعدة راسخة لانعاش وتطوير تلك العلاقات في إطار عملية التحضر الإقليمي والعالمي [٥٠٠] .

٥٠٠ كان الموسم الوحيد لتلك البعثة في الفترة من مارس/ آذار – أبريل/ نيسان ٢٠٠٣ . أنظر : نتائجها في كتاب «كنوز سيناء» فلاديمير بيلياكوف ، موسكو ، ٢٠٠٤ ، باللغة الروسية ، وتحت الطبع ترجمته للغة العربية من إصدار دار نشر أنباء روسيا ٢٠١٤ .

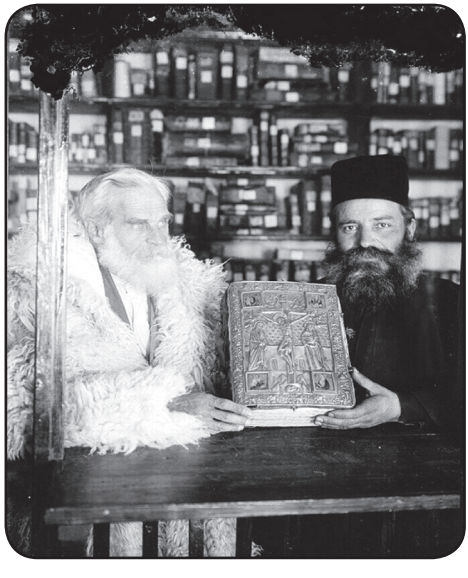

صورة من داخل دير سانت كاترين تعود إلى بداية العشرينيات